



تلقي المستشرق "شارل بلا" لرسالة التّوابع والزّوابع لابن شهيد الأندلسي

The reception of the orientalist charles pellat of Risālat al-tawābi 'wa-l-zawābi by
Ibn Shuhayd al andalousi

عبد القادر جلال (*)

جامعة سيدي بلعباس، الجزائر

aejjalal79@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/12/17 تاريخ القبول: 2021/04/22 تاريخ النشر: 2021/05/30

الملخص:

يحاول هذا البحث ان يرصد آليات القراءة الاستشراقية للتراث الأدبي الأندلسي، من خلال نص "التوابع والزوابع" لابن شهيد، الذي استطاع أدبه -على قلته-، أن يستحوذ على الاهتمام قديما وحديثا، بسبب جدته وأصالته. إذ وعلى الرغم من اختمار فكرة شياطين الشّعْر في التراث العربي القديم، فإنّ الرسالة تفلّنت بسلاسة من قبضة محاكاة نسق سردي سابق. بل حفّزت على تشكّل نماذج أخرى بعدها. وهو الأمر الذي تنبّه له المستشرق الفرنسي شارل بلا خاصة و أن الرحلة لم تكن إلى العالم الآخر شأن رسالة الغفران لأبي العلاء بل كانت رحلة أرضية.

الكلمات الدالة:

ابن شهيد ، موهبة ، تلقي ، تراث ، استشراق.

Abstract:

Ibn Chuhayd's texts - although few in number - have managed to gain attention in the past and present, due to their novelty and originality. Despite the fading of the idea of demons of poetry in the ancient Arab tradition, the message smoothly escaped the simulation of an earlier narrative system. Instead, he spurred the formation of other role models after him. This is something that French orientalist Charles pellat warned about, especially since the trip to the next world was not like Abu Alaa's risalat al ghofran, but rather it was an earth journey.

Key Words:

Ibn Chuhayd , talent, reception, patrimony , orientalism

(*) المؤلف المرسل: جلال عبد القادر aejjalal79@gmail.com



1. مقدمة:

أولى المستشرقون في بداية حركتهم اهتماما بالبعد الجغرافي للأدب العربي القديم. ومع أنهم تنبّهوا في وقت متأخر إلى أدب عربي (شرقي) نما وازدهر بين ظهرانهم؛ هو الأدب الأندلسي، إلا أنّ أعلامهم ظلّت عصيّة عنه. ربّما لأنّ إثبات وجوده في أرض امتزج أديمها بالعروبة (اسبانيا) يتعارض والفكر الاستشراقي الناشئ في أحضان الحركة الكولونيلية. ولكن ما إن أوشك النصف الثاني من القرن التاسع عشر ينقضي حتّى بدأت تلعو أصوات المستعربين الإسبان الذين وضعوا أضغان الكاثوليكية ومحاكم التفتيش جانبا، وتداعوا إلى رفوف المخطوطات العربية في مدريد، فأخرجوا للعالم الوجه الآخر الذي حجبه التّعصب الدّيني؛ اسبانيا العربية. لقد أدركت المدرسة الإستشراقية متأخرة أنّها لا تحتاج أن تولّي وجهها شطر الشرق، مادام بين أحضانها وفي منابتها الشرق نفسه (تلك الثروة الثقافية الهائلة التي راكمها العرب في اسبانيا كلها)¹. لقد تصالحت اسبانيا مع ماضيها، فشكّلت مع أعلام مدرستها الاستشراقية المعتدلين (فرانسييسكو كوديرا) (F.codera)، وتلامذته خوليان ريبيرا (J.Ribera). وأسّين بلاثيوس (A.Palacios) وأنخل بلانثيا (A.G.palancia) وغارسيا غوميس (G.Gomez)، وبعض أعلام المدرسة الاستشراقية الفرنسية هنري بريس وشارل بلّا، علامة فارقة في تاريخ الاستشراق المتجه غربا!

لم يغمط شارل بلّا (CH.pellat)² (1914-1992) ابن شهيد حقه في الإبداع والسبق. ولم يترك قراءته له - كما سرى- في مهب الاحتمالات والنهيات المفتوحة. في نزعة تحليلية تخصصيّة ميّزت المدرسة الاستشراقية الفرنسية هذه المرّة التي حاولت (النفاد إلى أعماق الشخصية العربية الإسلامية)³، من خلال النص الأدبي و الفكري. و إذا كان اندفاع المستشرقين الإسبان باتجاه الأدب الأندلسي منطقيا، فما الدافع من وراء انعطاف مستشرق فرنسي نحو ذلك، وهو الذي قضى سنيّ بحثه في محراب الجاحظ؟. إنه انعطاف أردنا أن نجيب من خلاله عن آليات تلقي الفكر الاستشراقي للأدب الأندلسي.

2. تلقي رسالة التّوابع والزّوابع

تلقى شارل بلّا ابن شهيد ورسالته التّوابع والزّوابع، ضمن سلسلة تاريخية تعاقبية للقراء الفعلين (ابن بسّام، البستاني، زكي مبارك، بروكلمان، هنري بيريس، غرسيا غوميس). وعلى الرغم مما قد يبدو للقارئ من أنّ ابن شهيد ورسالته يثيران صدى واحدا لدى جميع أولئك



القراء، إلا أنّ سؤالاً جوهرياً يستبد بنا جميعاً؛ ما الذي يجعل ابن شهيد ورسالته يستأثران بهذه الخاصية الحوارية العابرة للعصور من ابن بسام إلى ما شاء الله من المتلقين؟. ومهما يكن من أمر، فإنّ (إعادة تشكيل أفق التوقع كما كان في الوقت الذي تمّ فيه إبداع عمل ما وتلقّيه تسمح بطرح الأسئلة التي أجاب عنها هذا العمل، ومن ثمّ الكشف عن الطريقة التي أمكن بها لقارئ تلك الفترة أن ينظر إليه ويفهمه)⁴، تغدو مهمة في تشكيل فهم القارئ لرسالة ابن شهيد. ومع أنّ شارل بلا لم يطرح وهو يتلقى رسالة التّوابع والزّوابع في الفصل الثّاني من كتابه "ابن شهيد حياته وآثاره" أسئلة الجنس الأدبي، إلا أنّه اتكأ على ما تراكم من القراءات التي نمت حولها بدءاً بما جمعه أبو الحسن علي بن بسام في الذّخيرة، ثمّ ما اجتهد البستانيّ في تقديمه لما قام بتقسيمها إلى مشاهد. إنّ قدرة النّص على الحياة والهجرة وإقناع القراء بتلقّيه، لا تتاح إلا إذا كان في استطاعته أن يقول شيئاً ما لهم. وفي اللّحظة التي تكفّ فيها النصوص (عن السؤال وينفذ رصيدها من الإثارة وتغدو مألوفة فإنّها تشيخ)⁵. ولتتبع ذلك التفاعل بين شارل بلا (القارئ)، والتّوابع والزّوابع (النّص) علينا أن نحدّد أولاً مستويات تلقي "بلا" لابن شهيد ورسالته:

1.2 المستوى الأول: التلقّي العرضي

يقول بلا: (وذلك أنّنا كنا قبيل سنة 1950 قد أدرجنا في برنامج الامتحانات كتاب الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام وكوّنت بتدريس هذا النّص التّفيس وشرح فصوله وإظهار ما يحتويه من معلومات ومستندات داخلية في نطاق تاريخ الأدب والمدينة. فانتخبت الفصل الأول الخاص بابن شهيد وشرحته على حسب الطريقة الجارية في فرنسا)⁶. فتلقّي ابن شهيد جاء ضمن تلقي ابن بسام في الأساس، ولم يكن ذا طابع قصدي.

2.2 المستوى الثّاني: أفق التّوقع.

يقول بلا: (وأعجبت خاصة برسالة التّوابع والزّوابع حتّى أيقنت بأنّ أبا عامر أشدّ الكتاب فصاحة وأكثر الشّعراء إجادة وأوفر الرجال ذكاءً وحكمة)⁷. وإذا كان أفق التّوقع لاثبته الأعمال الأدبية إلاّ من (من خلال المعايير المعهودة أو جماليات الجنس الأدبي الذائعة [أو] من خلال علاقاته الضمنية بالأعمال التي تتناول البيئة التاريخية الأدبية، [أو] من خلال التعارض بين الخيالي والواقعي)⁸. فإنّ أفق توقع "شارل بلا" شكلته في بداية الأمر جماليات نص "التوابع والزوابع"، التي أوقعته في حبال الإعجاب لولا أنّ إعجاباً من نوع آخر حال دون سيرورة الأول؛ وهو الطعن في الجاحظ، الذي احتفى المستشرق بمؤلفاته، فدرسها وحقق بعضها.



3.2 . المستوى الثالث: خيبة الانتظار.

يقول بلا: (...ثمّ رأيتَه يطعن في الجاحظ ويحمل عليه، فقلت في نفسي هذا شيء عجيب كيف يعادي أبا عثمان من له من العقل ، والدّوق الأدبي ما أراه لأبي عامر. ولماذا لم ينصفه في رسائله بعد أن كان طلب إليه إجازته في رسالة التّوابع والزّوابع).⁹ ونظرا لولع "شارل بلا" بالجاحظ، فإنّه حتّى لما أراد أن يتخفّف قليلا من وطأته ، لم يترك له أبو عثمان وصال غيره إلاّ من بابهِ.(فلذلك يقول بلا) أزمعت هذه المرّة على طرق باب لا يؤدي إلى الجاحظ ظاهرا وإن كان مرتبطا به باطنا، وعلى دراسة أبي عامر بن شهيد لمنزلته من الأدب العربي عامّة والشعر الأندلسي خاصّة.. فلم يجزني إلى أبي عامر إلاّ محبّتي لأبي عثمان... فكان الجاحظ إذا علة من علل اعتنائي بآبن شهيد ونقطة انطلاق لدراساتي و أبحاثي... ثمّ انضاف إلى تلك العوامل ما تجاسر عليه آبن شهيد من الطّعن في صديقي أبي عثمان، فحرّضني كلّ ذلك على القيام بعمل أرجو من الله أن يجازيني به خيرا)¹⁰.

وأما مأخذ آبن شهيد على أبي عثمان فقد أورد آبن بسّام بعضا منها من مثل (قول الجاحظ: إنّنا إذا اكترنا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منّا بعشرين درهما في رأس كلّ شهر، ولو اكترنا من يعلمهم البيان لما قنع منّا بألف درهم. ولم يقل هذا إلاّ وقد ألف "كتاب البيان". ولو كشف فيه عن وجه التعليم، وصوّر كيفية التّدريج، لرأى كيف وضّع الكلام، وتزيّن البيان، وكيف التّوصّل إلى حسن الابتداء، و توصيل اللفظ بعد الابتداء، و أبدى لهم عن تدبير المقاطع والمطالع ، فإنّها معادن الصّنعَة، ومواضع مفتاح الطّريقة، ولكنّه استمسك بفائدته، وضمّن بما عنده، غيره على العلم، وشحّا بثمرة الفهم، وعرف أنّ النّفع كثير، والشاكر قليل، فلم يقد بما أوضح من أمر البيان فائدة غير أهله، ومن كرع في حوضه، واستافّ من نده، وأمّا أن يُخرّج مبتدئا، أو يعلم جاهلا فلا البتة)¹¹. ويقول في موضع آخر(إلاّ أنه لم يُرغب من الجاحظ لنفسه، إن كان واحد البلاغة في عصره، فما باله لم يلتمس بها شرف المنزلة بشرف الصّنعَة)¹². وهذا القدر في قعود الجاحظ عن التّوسل بصنّعته لنيل الوزارة أو ما شابه، لم يكن آبن شهيد ليحاجّ به ههنا لأنّه يعلم بأنّ الصّمم الذي أقعده دون المناصب، يكون شبيهه من العاهات الخلقية قد أقعدت أبا عثمان دون ذلك. فلم تكون الملوك تختار للكتابة الديوانية إلاّ من سلمت حواسّه.

يقول بلا: (فشرعت عندئذ في البحث عن شخصية آبن شهيد حتّى سبرت أغوارها أو كدت، وفهمت ما حمله على اتّخاذ مثل هذا الموقف المدهش المتناقض من أمير البلغاء وملك الأئنياء



عند العرب. فتوسعت دراسي بطبيعة الحال حتّى جمعت ديوان أبي عامر ونشرته في بيروت سنة 1963 وحررت بالفرنسية المذكرات التي سأعتمد عليها لإلقاء الدروس الآتية)¹³. اختار بلاّ إذا أن يقدم الفصل الأول من بحثه وفق منهج تعاقبي ليناسب المادّة التاريخيّة المصاحبة لحياة ابن شهيد. بينما حاول التّخفّف من تأثير ذلك على الفصل الثّاني منه ، فطاوع متّن التّوابع والزّوابع رؤيته التي شكّلها أول الأمر عن ابن شهيد من أنّه كان «رفقة صديقه محمد بن حزم من المتحمسين إلى التجديد في الشعر الأندلسي»¹⁴

4.2 المستوى الرابع: الاستجابة الجمالية

يقول بلاّ: (فشرعت عندئذ في البحث عن شخصية ابن شهيد حتّى سبرت أغوارها أو كدت، وفهمت ما حمله على اتّخاذ مثل هذا الموقف المدهش المتناقض من أمير البلغاء وملك الأئنياء عند العرب. فتوسعت دراسي بطبيعة الحال حتّى جمعت ديوان أبي عامر ونشرته في بيروت سنة 1963 وحررت بالفرنسية المذكرات التي سأعتمد عليها لإلقاء الدروس الآتية)¹⁵. اختار بلاّ إذا أن يقدم الفصل الأول من بحثه وفق منهج تعاقبي ليناسب المادّة التاريخيّة المصاحبة لحياة ابن شهيد. بينما حاول التّخفّف من تأثير ذلك على الفصل الثّاني منه ، فطاوع متّن التّوابع والزّوابع رؤيته التي شكّلها أول الأمر عن ابن شهيد من أنّه كان «رفقة صديقه محمد بن حزم من المتحمسين إلى التجديد في الشعر الأندلسي»¹⁶

أمّا بالنسبة إلى ماجمعه ابن بسام من نثر ابن شهيد فإنّ ما انتخبه من رسالته الشهيرة يوحى . حسب "بلاّ"- أنه "قد أهمل منها فصولاً كاملة زيادة على الفقرات التي أسقطها عمداً"¹⁷. ومن ذلك إهمال ذكر شاعرين من المجدّدين وهما بشار بن برد ومسلم بن الوليد الذي يقدره ابن شهيد وحينئذ لا يسوغ لنا أن نقطع بأنّ الكاتب أهملهما، وربّما أسقطهما ابن بسام لعلّة من العلل"¹⁸. ومع أنّ "بلاّ" لم يشر إلى بعض تلك العلل فإنّ المستشرق هنري بريس (H.Pérès) (1890-1970) ذهب هو الآخر إلى ما يعضّد القول بتعمّد ابن بسام إسقاط بعض شعر المجون والمهجاء، فمع أنّه "كان شديد القسوة في حكمه على الشعر [و] على الرغم من أنّ مختاراته في الذّخيرة من الشّعْر تشهد بحبّ واضح له، وبخاصّة ما نظمه مواطنوه الأندلسيون [فإنّ] مقدّمته على التّفويض، لقد كتبها في لحظة كانت الأحداث السياسيّة في وطنه بعد سقوط ملوك الطوائف تجعل حياة الآداب غير آمنة ، وتركت خيبة الأمل تعمّ. وجعلت من ابن بسام أكثر نقاد الحياة الأدبيّة مرارة في نهاية القرن الحادي عشر"¹⁹. فقد كان المرابطون بعد أن أصبحوا سادة إسبانيا يفضلون إيلاء الاهتمام لتدريس العلوم الدينيّة في المقام الأول فرأى ابن



بسّام-رّيمًا- أن "يجامل أبطال العقيدة الجدد"²⁰ فسَلَطَ مقصّ الرّقابة بنفسه على بعض الفصول من التّوابع والزّوابع الّتي قد لا تصادف هويّ في نفوس المرابطين. غير أنّ ابن بسام نفسه يصرح بإخراج أكثر شعر الهجاء والمجون ليس من التّوابع و الزّوابع فقط بل من الدّخيرة: "ومع أنّ الشّعْر لم أرضه مركبا ، ولا اتّخذته مكسبا، ولا ألفتَه مثنوى ولا منقلبا، إنّما زرتَه لِمَا، ولِحتّه تهمّمًا لا اهتماما، رغبة بعزّ نفسي عن ذلك، وترفيعا لموطئ أحمصي عن محلّه، فإذا شعشعت راحه، ودأبت أقداحه، لم أدقه إلا شميما، ولا كنت على الحديث إلا نديما، وما لي وله، وإنّما أكثره خدعة محتال، وخلعة مختال، جده تمويه وتخيل، وهزله تدليه وتضليل، وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم..."²¹. فربّما يكون شعر بشّار وغيره في التّوابع قد وقع تحت طائلة هذا الحكم. "ولأنّ الأديب الّذي لم يكتب سطرًا واحدًا في الفقه والعلوم الدّينيّة لم يكن أهلا بأن تخلّد آثاره، فلا بن بسّام علينا حقّ الامتنان الخالد لأنّه أبصر فائدة ما كتبه ابن شهيد فاحتفظ لنا بقسم يجعلنا نتأسّف على ضياع بقيّته أشدّ الأسف"²² فله بذلك فضل الرّيادة فيما نحن بصددّه.

3 أوليّة التّوابع والزّوابع

يزعم "بلا" أنّ ابن شهيد كتب رسالته الشهيرة في مقتبل العمر، حيث (ورد في صدرها ما يلفت الأنظار ويوقظ الانتباه)²³: (لله أبا بكر ظلّ رميته فأصميت، وحدهس أملتة فما أشويت، أبديت بهما وجه الجليلة، وكشفت عن غزّة الحقيقة، حين لمحت صاحبك الذي تكسبتة ورأيتة قد أخذ بأطراف السماء، فألف بين قمرها، ونظم فرقدتها، فكلّما رأى ثغرا سدّه بسّهاها، أو لمح خرقا رمّه بزبانها إلى غير ذلك. فقلت كيف أوتي الحكم صبيا وهزّ بجذع نخلة الكلام فاسأقط عليه رطبا جنيا؟ أمّا إنّ به شيطاننا تهديه ويصبانا يأتيه؟ وأقسم أنّ له تابعة تنجده و زابغة تؤيده، ليس هذا في قدرة الإنسان ولا هذا النفس لهذه النفس. فأما وقد قلتها، أبا بكر، فأصخّ أسمعك العجب العجاب)²⁴.

كما يزعم كذلك أنّ ابن شهيد كتب رسالته في طبيعتين، أو روايتين، أتمّ (الرواية الأولى قبل سنة 401هـ/1011م²⁵ ثمّ أضاف إليها نصوصا جديدة أو أضافها أصدقاؤه وأنصاره ، وليس هذا الأمر بعجيب لأنّ المؤلفين الكتاب العرب قد عودونا عليه إذ نراهم يهدّبون وينقحون مؤلفاتهم ويزيدون عليها زيادات دون أن يصحّحوا سائر النصوص)²⁶. قد يبدو هذا الافتراض منطقيا، بالنظر إلى القصائد والمقطوعات التي نظمها ابن شهيد بعد أن وجّه رسالته إلى صديقه ابن حزم، والتي وردت في متنها. ثمّ (كما أنّ ابن بسّام أسقط من هذا النصّ فقرات



دون أن يضرّ مثل هذا العمل الانتقائي بهيكل الكتاب ، فكذلك كان من الممكن أن تضاف إليه أشعار وفصول منثورة من غير أن تمسّ هذه الزيادات معنى الرّسالة العام ومن غير أن يلتفت إليها القارئ الذي لا يكثر بمشكلات الرّمان ، وما أبسط إضافة شعر تقدّمه جملة كهذه "زدني من رثائك وتحريضك-فأنشدته"، أو "أنشدني من رثائك أشدّ من هذا و أفصح" أو "أنشدني من جحدريتك من السّجن". فإنّ الإهداء عندي حجّة لا تردّ ولا تنازع²⁷. وبعد أن تخلص من إشكال أوليّة "التّوابع والزّوابع" ينعطف "بلا" إلى حلّ مشكلة أخرى (طالما انكبّ عليها مؤرخو الأدب العربي وهي صلة ما بين التّوابع والزّوابع ورسالة الغفران)²⁸. فيتكئ في البداية على آراء نقاد عرب أثاروا هذه القضية مثل "أحمد ضيف" الذي يميل إلى القول بتقليد ابن شهيد لأبي العلاء (لأنه أدرك عصره ولأنّ شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب. وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق في كلّ شيء)²⁹. ثمّ رأي "زكي مبارك" الذي صوّب بعد فترة رأي أستاذه "أحمد ضيف". حيث جعل من التحقيق وسيلة لمحاصرة ابن شهيد ونثره، فرجّح بأن تكون (رسالة التّوابع والزّوابع كتبت بين سنة 403 هـ وسنة 407 هـ)³⁰. ومع أنّه ذكر الرأي ونقيضه في جزئية أخرى؛ وهي السنّة التي كتب فيها ابن شهيد رسالته، إلّا أنه امتنع عن الجزم بأنّه كتبها في مقتبل العمر. لا لشيء إلّا لانعدام ما يثبت ذلك، فخلص بالتّالي إلى (أنّ رسالة الغفران كتبت بعد التّوابع والزّوابع بنحو عشرين سنة، وبذلك يتبيّن أنّ الدكتور ضيف لم يكن مصيبا حين افترض أنّ ابن شهيد قلّد أبا العلاء، وصار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذي قلّد ابن شهيد)³¹، فقد منح هذا الأمر فرصة لسدّ هذه الفجوة في تاريخ تأليف التّوابع والزّوابع.

ما أن ينتهي "بلا" من عرض آراء غيره، حتى ينبري لإبراء ذمّة ابن شهيد من تقليد أبي العلاء. بل يذهب أبعد من ذلك حين يرى من الواجب -كما يقول- (أن نعجب بقوة مخيلته وصحّة نبوغه إذ تخيل سفرا إلى أرض الجنّ يلقي فيها توابع الشعراء ... ولقد أجهد الأستاذ بيريس نفسه فحاول أن يلتمس لهذه البديعة أصلا وذهب إلى أنّ أبا عامر تأثر ببعض آراء اليونان ، وإن اعترف بأنه استمدّ فكرته من نفسه. أمّا أنا فأعتقد أنّ ابن شهيد لما قال له أبو بكر إنّ له تابعة تنجده، وجد في هذا القول نقطة انطلاق وبنى فكرة التّوابع والزّوابع الأصلية)³². كما يغلب على الظنّ أيضا أنّ أبا عامر قد يكون اطّلع على بعض رسائل الجاحظ ، فسارع إلى النسخ على شاكلتها. وهو افتراض يمكن للقارئ أن يقف على رجحانه عندما يمعن النّظر في كتاب الحيوان الذي خصّ أبو عثمان الجنّ فيه بأزيد من مائة صفحة³³.



وأما فيما يتعلق بتأثر ابن شهيد باليونان. إنّما هو اجتهاد المستشرق الفرنسي "هنري بيريس" الذي لا يرى بديعة في الأدب الأندلسي إلا بحث لها عن أصل في التراث الغربي. وهو إن كان أصاب في جانب من هذه المسألة فإنّ الحظّ لم يحالفه في الباقي. فابن شهيد (لم يعرف رسالة الغفران، ولم يستلهم فكرته إلا من نفسه أو من الوسط الذي عاش فيه. وهنا نخمن بأنّ أبا عامر بن شهيد وكان كثير الاختلاط بالمستعربين من القسس المسيحيين ويهود قرطبة، استطاع بتداخله معهم أن يقرأ ترجمة غير كاملة دون شك لكتاب محاورات لوسيان Dialogues de Lucien، أو كتاب Carlyle، أو فيدون Phédon لأفلاطون)³⁴، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حين يرى بأنّه (خلال نيف وسبعين عاما من الامتداد الزمني يظهر الفكر اليوناني أو اللاتيني ثانية ، بعد إعداد بطيء خلال أشكال ليس فيها من الطابع العربي شيء ، في مثل رسالة أبي عامر بن شهيد هذه، والتي تجسّد المثل الأروع دقة في الأدب الأندلسي)³⁵. ومع أنّ الحُميدي أثبت قبل بيريس جزءًا من هذه الحقيقة حين يقول بأنّه كان لابن شهيد (علم من الطبّ وافر)³⁶. لكن - ربّما- يكون غاب عن بيريس أنّ فكرة شيطان الشعر والإلهام الذي يليق به في روع الشاعر، عربية بامتياز³⁷.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الرسالة في التّهاية (أمر شخصي وعمل صبياني عبقرّي يرمي إلى هدف رئيسي هو البعث على الإعجاب بمواهبه الشاذة. فتظهر هنا وهناك في الرسالة بعض الأفكار والتأمّلات في فنّ الأدب وشروطه غير أنّ ابن شهيد لا يريد أن يعرض نظريّة جديدة منتظمة منسّقة بل يكتفي بالنسج على منوال المشرقيين ويطلب إليهم إجازتهم ويتبرك بهم إن صحّ التعبير، فلا يخاطبهم بأنفسهم بل يخاطب توابعهم بواسطة تابعته زهير بن نمير من قبيلة أشجع الجنّ كما أنّه ينتهي إلى أشجع الإنس)³⁸

4 النموذج السردى

ورد في رسالة التّوابع والزّوابع ما يثبت اصطفاء الجنّ للشعراء ومعاضدتهم في انتقاء النظم. فقد صادف أن خمدت صبوة أملت بآبن شهيد في شبابه، ولمّا رُزء فيمن كان يصبو. لم تسعفه قريحته في رثائه. وإذ بجنيّ يتمثل له (بباب المجلس على فرس أدهم كما بقَل وجهه، قد اتكأ على رمحه، وصاح بي : أعجزا يا فتى الإنس؟ قلت: لا وأبيك، للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان... فأثبت إجازته، وقلت له: بأبي أنت! من أنت؟ قال: أنا زهير بن نمير من أشجع الجنّ. فقلت : وما الذي حداك إلى التصرّو لي ؟ فقال: هوئ فيك، ورغبة في اصطفاك... ثمّ قال : متى شئت استحضاري فأنشد هذه الأبيات... وأوتب الأدهم جدار الحائط ثمّ غاب عني .



وكنت، أبابكر متى ارتجّ عليّ، أو انقطع بي مسلك، أو خانني أسلوب، أنشد الأبيات فتمثّل لي صاحبي، فأسير إلى ما أَرغب ، و أدرك بقريحتي ما أطلب ، وتأكّدت صحبتنا ، و جرت قصص لولا أن يطول الكتاب لذكرت أكثرها لكثي ذاك بعضها³⁹.

لم يستغن ابن شهيد كغيره من كتّاب الرسائل عن النموذج المهيمن على السرد العربي القديم؛ القصة الإطار، واتّخاذ المسامرة أو المذاكرة آلة لتحريك مفاصل الحكاية. حيث تناسلت من القصة الأمّ (القصة الإطار وهي قصة تمثّل الجنيّ زهير بن نمير لابن شهيد)، قصص أخرى، شرع "الراوي العليم" في عرضها باستعمال الصيغة والدّافع معا: (تذاكرت يوما مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء ، وما كان يألّفهم من التوابع والزوابع، وقلت : هل حيلة في لقاء من اتّفق مهم؟)⁴⁰. ومن جهة أخرى استطاع "شارل بلا" أن يرصد وهج العلامة الأبرز في رسالة "التّوابع والزّوابع": "الآراء النقدية" التي بثّها ابن شهيد في تضاعيفها. وبعد أن راجع النصوص المناسبة وتأمّلها. استخلص أربع قضايا شكّلت ملامح مدرسة ابن شهيد التّقديّة:

- القضية الأولى: (لا يترتب البيان على الصناعة والحفظ والتقليد بل على الطبع)⁴¹. وتلك الغاية التي من أجلها أنشئت رسالة التّوابع والزّوابع، فقد كان ابن شهيد يرتجل الشّعروالنثر أمام توابع الشّعراء فيجيزونه، فيقول -مثلا- بعد أن سألته الإوزة (من حيوانات الجنّ): (أيها الغارّ المغرور كيف تحكّم في الفروع وأنت لا تحكّم الأصول؟) ما الذي تحسن ؟ قلت: ارتجال الشعرواقتضاب خطبة على حكم المقترح والنّصبة، قالت : ليس عن هذا أسألك. قلت: ولا بغير هذا أجابك . قالت: حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال وأنا إنّما أردت بذلك إحسان النّحو والغريب اللّذين هما أصل الكلام ومادة البيان)⁴² ، ثم يقول في موضع آخر (وإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب، واستيفاء مسائل النّحو، و إنّما يقوم بها الطبع مع وزنه من هذين؛ النّحو والغريب)⁴³.

وبقليل من الاستقصاء يحاول محاصرة هذه القضية مما حصل له من ملكة الطّب: ومقدار طبع الإنسان إنّما يكون على مقدار تركيب نفسه من جسمه. فمن كانت نفسه في أصل تركيبه مستولية على جسمه. كان مطبوعا روحانيا. يطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها و أرقّ لبساتها، ومن كان جسمه مستوليا على نفسه ، من أصل تركيبه ، و الغالب على حسّه، كان ما يطلع من تلك الصور ناقصا عن الدرجة الأولى في الكمال والتمام وحسن الرّونق والنّظام. فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتي منه في حسن النّظام صور رائقة من



الكلام تملأ القلوب وتشغف النفوس)⁴⁴. (و الحاصل أنّ ابن شهيد شاعر مطبوع لم يتكسّب بالشّعربل قاله لمجرّد ذاته، فهو من أنصار الفن للفن)⁴⁵

- القضية الثانية: (إنّ الله هو الذي يعلمّ البيان دون الكتب والمعلّمين)⁴⁶.

لقد كانت آراء ابن شهيد النّقديّة (صرخة استغاثة لما أحس أنّ الشّعربالعربي في خطر من أجل شيوع الرّجل والعمّامّي والموشّح اللّذين يزدريهما حتّى يسكت عنهما سكوتا تامًا، [إضافة إلى] تغلب التقليد والتعقّد اللفظي على القريحة الشّعريّة الصّحيحة)⁴⁷. وقد تردّدت في التّوابع أصداء تلك الاستغاثة التي جاءت في سياق حوار مع تابعة الجاحظ(قال: كيف كلامهم بينهم؟ قلت: ليس لسببويه فيه عمل، ولا للفراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة، إنّما هي لكنة أعجمية يدّون بها المعاني تأدية المجوس والنّبطن. فصاح: إنّ الله، ذهب العربُ وكلامها! ارمهم يا هذا بسجع الكهّان. فعسى أن ينفك عندهم، ويُطير لك ذكرا فيهم. وما أراك مع ذلك، إنّما ثقيل الوطأة عليهم، كرية المحيء إليهم)⁴⁸.

- القضية الثالثة: (الجمال لا يحدّد ولا يعرف لأنّه يأتي من الطبع ويتركّب من عناصر لطيفة لا تدرك ماهيتها)⁴⁹.

- القضية الرابعة: (ليس الشعر إلاّ بالبيان)⁵⁰.

يقول ابن شهيد (ومن الواجب على النّاقّد أن يبحث عن الكلام، ويفتّش عن شرف المعاني، وينظر مواقع البيان، ويحترس من حلاوة خدع اللفظ،... فقد ترى الشعر فضيّ البشرة، وهو رصاصي المكسر...و إنّما يستحقّ اسم الصّناعة بتقحمّ بحور البيان...ويتلّون تلّون أبي براق)⁵¹. ثمّ يشرع في بيان أوصاف البلغاء ، فيقسّمهم إلى ثلاث طبقات⁵².

يضع ابن شهيد نفسه-بحسب بلا- في الطبقة الثّانية «التي توافق أوصافها ما نعرفه من أخلاقه ونابزته وسطوته على أعدائه»⁵³. إذ يقول عنها (ومتهم الكارع في بحر الغزارة الذي يمرّ مرّ السيل في اندفاعه، والشؤبوب في انصبابه، لا يشكو الفشل ولا يكلّ على طوال العمر، إذا ازحمت في الكلام عليه المطالب، وعلقت بالحواشي عليه الصّعائب والغرائب، استقلّ بها كاهله، واضطلع بثقلها غاربه، وأعارها من نظره لمحة، ومن فكره قديحة، ثم رمى بها عن جانبيه...لا تتاح له جارحة إلاّ اقتصّها، ولا تنازله طائرة إلاّ اختطفها، جرّاته كسفرته، وبديته كفكرته، فذلك الألسن يوم حرب الكلام، لا تُخطئ ضربته، ولا تصاب غرته)⁵⁴. يركب الصعب في النظم دون تكلف بل عن طبع، يقدر من قريحته ويجترح من تجربته صنوف البيان.



3. تحليل النتائج:

إنّ الموضوعية التي أحاطت بالبحث منذ البداية ، جعلت النتائج التي خلص إليها "بلا" منطقيّة ومقنعة إلى حدّ ما. ومن ذلك:

- أنّ التّجديد الذي نشده ابن شهيد كان في الشّكل دون المضمون. إذ كان وفيها لمسيرة الشعر العربيّ من الجاهلية إلى أيامه فرأى أنّه تطوّر تطوّرًا ملموسًا من جرّاء تغيّر الأحوال وتبدّل الأذواق، وحاول أن يرفض التقليد واستعمال البديع المبتذل ليحدث شعرا أصيلا مبتكرا يتّسم بصور جديدة وتشبيهات غير مألوفة ، أمّا أن يخلق شعرا "أندلسيا" وأنواعا مبتدعة وإطارات مخترعة ، فلا البتة. يخيل إلى الشعراء منذ سؤال عنتره: هل غادر الشعراء من متردّم؟ أنّ سؤال الشعر العربي الحديث قد طرق جميع الأبواب وتطرق إلى جميع الأغراض، حتّى إنّ السلف لم يترك للخلف إلاّ التفتّن في اللفظ دون المعنى، والحقّ أنّ أبا عامر لم يعن بالمعنى عناه باللفظ، ولا اهتمام في التّالي إلاّ بتجديد اللفظ. وودنا لو أدركنا مراده الأبعد وهدفه الأقصى حيث وضع على لسان الهمداني هذا الكلام:(أو ما علمت أنّ الواصف إذا وصف شيئا لم يتقدّم إلى صفته ولا سلّط الكلام على نعتة اكتفى بقليل من الإحسان واجتزأ بيسير البيان؟ لأنه لم يتقدّم وصف يقرن بوصفه ولا جرى مساق يضاف إلى مساقه". تنسجم هذه النّتيجة مع ما أصدره المستشرق "إميليو غارسيا غوميز" في حقّ الشّعر الأندلسي عامّة حين رأى بأنّه "فيما خلا بعض الشّواذ فقير من النّاحية الدّهنية والفكرية) ، لأنه استهلك البراعة اللفظية دون أن يجترح تمثّلا فكريا لها، فجاءت معانيه الشعرية صروحا منمّقة بروح مشرقية.

- لقد قادت شارل بلا محبة الجاحظ والدفاع عنه إلى محبة ابن شهيد دون افتئات ولا تعصّب. والحقّ إنّ الخدمة التي أسداها إلى الأدب الأندلسي تستحقّ منّا الاعتراف حتّى قبل أن يذكرنا بها هو نفسه حين يقول: "لقد حُفظت آثار ابن شهيد كلّها أو جلّها مدّة قرن ثمّ أهملت وذهبت إلّا من المجموعات وكتب التّراجم، فلم يبق بإحيائها إلّا خدّمة الأدب العربيّ من أبناء القرن العشرين فاستحقّوا بذلك شكر الناطقين بالضّاد والسّلام". وقد يكون للباحثين عود إلى نصوصه الكثيرة عن الجاحظ ، لعلهم يقفوا على أوجه أخرى لأشكال التلقي الاستشريقي.

4. خاتمة:

- نمت الكتابة الاستشراقية الأدبية كثيرا من حول المتون الأنثربولوجية (الأساطير والقصص الخيالي)، وفضّلت التخلّق حول مادّبة الأدب الصوفي (الحلاج وابن عربي مثلا)، وتلذّذت كثيرا بطرح الأسئلة الجوهرية حول صحّة قسم كبير من تراثنا الأدبي (صحّة الشّعر الجاهلي). و



أيقظت من بطون الكتب النصوص الظنية، فأنتجت الأسئلة الواخزة التي علا سقفها في
مزادات الافتراء على المقدّس أحيانا. كما استبدّت بالكتابة الاستشراقية أيضا رغبة جامحة
لبعث أصوات المقموعين والمهمّشين والمجذّدين من الذين وضعتهم المؤسسة السياسية أو
الدينية والثّقافية الرّسمية في فترة ما خارج الاهتمام؛ لدوافع سياسية كالشعوبية، أو دينية
كالزندقة والقول بالحلول والاتّحاد. أو حتى أدبية كالخروج على نمطية النّص الشعري. ولكنها
نجحت في المقابل كما هو الحال في تلقي شارل بلا لرسالة ابن شهيد، في امتحان الموضوعية.
- اليومَ وبعد أن أصبح العالم خلف أصابعنا، وتقلّصت الفجوة كثيرا في تلقي المعرفة، فإنّ
الكتابة الاستشراقية لم تعد تبعث فينا الخوف على العبث بماضينا، بقدر ما أصبحت لدى
جيل باعنا على الكتابة المضادة، ليس للرد على افتراءات بعض المستشرقين، بل لإنتاج الآخر
كما أنتجنا. وقد يكون الاستغراب ربّما وجها من وجوه ردة الفعل تلك. وإذا صدقت نبوءة
"جاك بيرك" (J.Berque) (1910-1995) عن نهاية الاستشراق في بعده المؤسّساتي⁵⁵، فإنّ أفق
الاستغراب يبدو مغريا!

- ومهما يكن من أمر، فإنّنا قد نضطر أحيانا إلى عدم لوم بعض المستشرقين- التّملى بالزّعة
التفوقيّة- الذين اقتربوا من الأدب الأندلسي، خاصة في ظواهره الأدبية الطّافرة عندما
يحشرونه في زاوية المردد للصدى (المنفعل)، إذا كان بعض أهل الأدب العربي أنفسهم،
يعتبرون جزءاً منه رجعا لصدى الأدب في المشرق.

7. هوامش

- ¹ خيري، منصور، الاستشراق والوعي السالب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001، ص 36.
- انظر عبدالرحمن، بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1993، ص 117-120²
- ³ أحمد، سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998، ص 224.
- ⁴ هانز روبرت، ياوس، جمالية التلقي، تر، رشيد بنحدو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 2004، ص 43.
- ⁵ هانز، روبرت، ياوس، جمالية التلقي، ص 125
- ⁶، شارل بلا، ابن شهيد حياته و آثاره، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1965، ص 4.
- ⁷ شارل، بلا، ابن شهيد حياته و آثاره، ص 4.
- ⁸ روبرت، هولب، نظرية التلقي، تر عزّ الدين إسماعيل، النادي الثقافي الأدبي، جدة، ط 1997، ص 157.
- ⁹ شارل، بلا، ابن شهيد حياته و آثاره، ص 4
- ¹⁰ شارل بلا، ابن شهيد حياته و آثاره ص 4-5



- ¹¹ ابن بسام ،أبو الحسن، علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ج1، 1997، ص232-233 .
- ¹² ابن بسام ،أبو الحسن، علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص 243 .
- ¹³ شارل، بلا ، ابن شهيد حياته و آثاره ص4، 5
- ¹⁴ شارل، بلا ، ابن شهيد حياته و آثاره ص7
- ¹⁵ شارل، بلا ، ابن شهيد حياته و آثاره ص4، 5
- ¹⁶ شارل، بلا ، ابن شهيد حياته و آثاره ص7
- ¹⁷ شارل، بلا ، ابن شهيد حياته و آثاره ص9.
- ¹⁸ شارل، بلا ، ابن شهيد حياته و آثاره ص93.
- ¹⁹ هنري ،بيريس، الشعر الأندلسي في عهد ملوك الطوائف، تر أحمد مكي ،دار المعارف القاهرة ط1 يونيو 1988 ص65.
- ²⁰ هنري ،بيريس، الشعر الأندلسي في عهد ملوك الطوائف ص65
- ²¹ ابن بسام ، أبو الحسن علي ،الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1 ص18.
- ²² شارل، بلا ،ابن شهيد حياته و آثاره ص148
- ²³ شارل، بلان ابن شهيد حياته و آثاره ، ص95-96
- ²⁴ ابن شهيد،أبو عامر، رسالة التوابع والزوابع تح، بطرس البستاني، دار صادر، بيروت ، ط1، 1996، ص87-88
- ²⁵ تتضمن رسالة التوابع والزوابع " قصيدة لابن شهيد في سجنه ، ولم يكن من الممكن أن تكتب قبل عام 407هـ/1016م. وهي أيضا تشير إلى المرثية التي قيلت بمناسبة وفاة ابن ذكوان ، وذلك عام 414هـ/1022م...فالتاريخ الصحيح الذي كتبت فيه "الرسالة". ينحصر بين عامي 416-420هـ/1025-1029م".
- أنظر ابن شهيد، الديوان، تح يعقوب زكي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ص43-44 .
- ²⁶ شارل ،بلا ، ابن شهيد حياته و آثاره، ص97، 98
- ²⁷ شارل، بلا ، ابن شهيد حياته و آثاره، ص97
- ²⁸ شارل، بلا، ابن شهيد حياته و آثاره ، ص98
- ²⁹ أحمد، ضيف، بلاغة العرب في الأندلس ، دار المعارف ، تونس ط2، 1998، ص62 .
- ³⁰ زكي، مبارك، النثر الفتي في القرن الرابع، هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة2013، ص259 .
- ³¹ زكي، مبارك، النثر الفتي في القرن الرابع ، ص260 .
- ³² شارل، بلا، ابن شهيد حياته و آثاره، ص99 .
- ³³ أنظر أبو عثمان، عمرو بن بحر، الجاحظ ،الحيوان، تح، عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط2، 1967 ، ص188.
- ³⁴ هنري ،بيريس، الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، ص42 .
- ³⁵ بيريس، هنري، الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، ص42 .



- ³⁶ أبو عبدالله، الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تح بشار عواد ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2008، ص 194 .
- ³⁷ أنظر عبدالرزاق، حميدة، شياطين الشعراء، مكتبة الانجلو مصرية (دت) (د ط)، ص 56 .
- ³⁸ ماريان، خيسوس، ريبيرا ، الأدب الأندلسي، تر، أشرف دعدور ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، 1999. ص 101 .
- ³⁹ ابن شهيد، أبو عامر، رسالة التواضع والزواضع ،ص 88-89-90 .
- ⁴⁰ ابن شهيد، أبو عامر، ارسالة التواضع و الزواضع ،ص 91 .
- ⁴¹ شارل، بلا، ابن شهيد حياته و آثاره، ص 135 .
- ⁴² ابن شهيد، أبو عامر، رسالة التواضع والزواضع ،ص 151.
- ⁴³ ابن شهيد، أبو عامر، رسالة التواضع والزواضع ، ص 151.
- ⁴⁴ ابن بسام أبو الحسن، علي، الذخيرة في محاسن ،ص 231 .
- ⁴⁵ شارل، بلا، ابن شهيد حياته و آثاره، ص 123
- ⁴⁶ شارل، بلا، شارل، ابن شهيد حياته و آثاره، ص 135
- ⁴⁷ شارل، بلا، ابن شهيد حياته و آثاره ص 149.
- ⁴⁸ أبو عامر، ابن شهيد، رسالة التواضع والزواضع ،ص 117 .
- ⁴⁹ أبو عامر ،ابن شهيد، رسالة التواضع والزواضع ص 140
- ⁵⁰ ابن بسام أبو الحسن، علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ،ص 310- 311
- ⁵¹ ابن بسام أبو الحسن، علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ص 238-239
- ⁵² ابن شهيد، أبو عامر، رسالة التواضع والزواضع ص 142.
- ⁵³ ابن بسام ،أبو الحسن، علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ص 238-239 .
- ⁵⁴ شارل، بلا، ابن شهيد حياته و آثاره ص 147.
- ⁵⁵ خيري، منصور، الاستشراق والوعي السالب . (د ط) ، (د.ت)ص 36